سقياس الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية
س2 ماستر . شعبة أدب عالمي ومقارنة
الأستاذ/ نادية باقة

الفوج 5

المحاضرة الأولى: إشكالية الانتماء والهوية.

- تعد ظاهرة الكتابة بلغة المستعمر متميزة في دول المغرب العربي، فقد تشغلت الرواية المغاربية عامة والجزائرية خاصة المكتوبة باللغة الفرنسية بال واهتمام الكثير من الدراسات والبحوث الأكاديمية المقارنة حول "انتماء هذا الأدب المكتوب بغير لغة أمته"، واستندت هذه الدراسات على مدرستين عريقتين في مناهج البحث المقارن وهما: المدرسة الأمريكية والمدرسة الفرنسية.

- تتمثل إشكالية الهوية والانتماء في انتساب هذا الأدب وإلى أي جهة ينسب؟ أيعد أدباً فرنسيا نظراً للغة التي كتب بها حسب المدرسة المقارنة الفرنسية، أم يعد أدباً جزائرياً باعتبار "الروح" التي كتب بها حسب المدرسة الأمريكية.

- وعليه فإن الإشكالية والأسئلة التي طرحت فيما يتعلق بالأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية هي أسئلة تجيب عنها الأعمال الأدبية التي سايرت الواقع الجزائري منذ الاحتلال الفرنسي إلى يومنا هذا. ويدفعنا هذا الأمر إلى البحث والتنقيب عن الإرهاصات الأولية للأدب الجزائري والمتغيرات الأيديولوجيا والفكرية التي صاحبت هذا الأدب.

Scanné avec CamScanner

المحاضرة 2 عوامل تأسيس وتطور الأدب ج م ف

أولا:

مرحلة الدرس.

ساهمت الإصلاحات في السياسة الفرنسية بعد إعلان مبادئ "ويلسون" الشهيرة عن حق تقرير الشعوب المستعمرة في تقرير مصيرها من ناحية وإلغاء قانون الأندجينا العنصري من ناحية أخرى في اتخاذ إجراءات إصلاحية انتهجتها فرنسا بمناسبة الاحتفال بالذكرى المئوية لاحتلال الجزائر، وكان لزاما على فرنسا تبييض الوجه وتقديم تبريرات للمجتمع الدولي من أجل تبييض نقودها وسياستها الاستعمارية واستمرارها في احتلال البلد الجزائر تحت شعار "الرسالة الحضارية" التي طالما ردّدتها فرنسا وتغنت بها، فتزعم أنها وجدت هذا المجتمع يتوى يتكلم عدة لهجات متفرقة: العربية، الأمازيغية الترقية، الميزابية - لكن فشلت - على مرامها الكاذبة والمزيفة من أجل العثور على أعذار تكسبها الشرعية الدولية لمواصلة الاحتلال والاستيطان.

- راحت فرنسا المستعمرة تمدّ لكتاب البلد يد العون فقامت بتشجيعهم على نشر أعمالهم، وظهرت فجأة عدة أعمال أدبية نشرت كلها تحمل المناسبة المذكورة أعلاه:

- فظهرت في عشرية 1920 - 1930 خمسة أعمال أدبية هي:

مجموعة سالم القبي الشعرية - السيرة الذاتية للقايد بن الشريف

رواية زهراء امرأة المنجمي Zohra la femme du Mineur

لعبد القادر حاج حمو 1925 ورواية مأمون لشكري خوجة

Mamoun L'ebrenche d'un Enfant 1925

ورواية العلج أسير بربروسيا لشكري خوجة 1929

El - Eulj, Captif des Barbaresque.

وقد عالجت هذه الأخيرة موضوع الإدماج عن طريق التلميح فابتعدت عن المعالجة المباشرة لموضوع الإدماج والانصهار مع العالم الأوروبي حيث لجأ كاتبها إلى استلهام وقائع تاريخية في رياس البحر في جزائر القرن 16 و17 عشر ليستطيعا بشكل فني بارع على عاصره في القرن 20 واستخلاص العبرة.

Scanné avec CamScanner

* قراءة في المشهد السياسي والأدبي

لا شك أن الأعمال الأدبية المذكورة والتي نشرت للمناسبة قد برهنت على عقم المدرسة الإستعمارية وشح النتائج التي عرضتها سياسة الاستعمار التعليمية.

- في الحقيقة أن هناك عوامل ساعدت ظهور هذا الأدب أبرزها عاملان رئيسيان:

الأول: سياسة العدوان التي انتهجها الاستعمار طول احتلاله وحربه الإستئصالية ضد مقومات الأمة الجزائرية، الأمر الذي منع أي احتكاك بين المحتل وأهل البلد من جهة وانعدام الثقة بينهما من جهة أخرى، مما حال دون أي تعاون أو تلاقح فكري أو سياسي.

الثاني: سياسة التعليم التي طبقها المستعمر أو بالأحرى سياسة التجهيل، حيث استبدل البنية التقليدية للمنظومة التعليمية بمنظومة جائرة لم تتضمن لكل أبناء الشعب الحد الأدنى من التعليم.

- كان الجزائريون والمستوطنون يعيشون جنباً إلى جنب، ولكن بخطين متوازيين لا يلتقيان فلكل مجتمع حياته وخصوصيته لا يشاركه فيها الطرف الآخر، فلا المستوطن يسمح للجزائري بمشاركته النادي أو المقهى أو أي نشاط ثقافي أو ترفيهي وفي المقابل لا يسمح الجزائري للمحتل أن يشاركه أنشطته الثقافية أو الترفيهية كنوع من المقاومة السلبية للمحتل. مما أدى إلى اتساع الهوة بين الجزائري والمعمّر، وقد عبّر أحد الباحثين عن هذه الهوة بقوله «لا يوجد بين فرنسا والجزائر سوى ألف كيلومتر من ماء البحر، ولكن يوجد بين أحياء الأوروبيين في المدينة وأحياء الأهالي مسافة فلكية هي التي صنعها الاستعمار».

Scanné avec CamScanner

* الإشكاليات الفكرية والأيديولوجيا لمرحلة التسعينيات

- طرحت الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية الإشكاليات المعقدة كالحضارة الغربية الليبرالية التي ترتبط بالحرية الفردية. ومن اهم تلك الإشكاليات التي كونت الهاجس المركزي في تلك الأعمال الأدبية، مسألة حرية تعاطي الخمور ولعب القمار والتي تعد من الأمور المباحة والشخصية الفردية التي تتعلق بحرية الفرد في المجتمع الغربي بينما تعد هذه الأمور من المحرمات في الشريعة الإسلامية وتلزم إقامة الحد على مرتكبها.

- ينتمي كتاب الروايات السابقة أمثال شكري طوجة وعبد القادر حاج حمو إلى أبناء البلد الجزائر وهم نتاج المدرسة الفرنسية وممن كانت أحوالهم المادية ميسرة ويؤمنون بفكرة الإندماج في مجتمع المستوطنين ويظهرون إعجابهم بالثقافة الفرنسية غير أن القضايا الفكرية التي عكستها رواياتهم كانت تعبر عن عمق الهوية والإنتماء بالنسبة للمجتمع الجزائري المسلم.

- فرواية "رمضان إمرأة المنجمي" لعبد القادر حاج حمو والتي تعد تباكورة الأعمال الروائية للكتاب الجزائريين باللغة الفرنسية. قبلها عامل جزائري يعمل في مناجم الفحم بضواحي مدينة سيبانة، يعيش مع زوجته عيشة راضية ويتقاضى أجرا معقولا أقل بكثير مما يتقاضاه أي عامل أوروبي يعمل معه في المنجم ذاته وانتهى به الأمر إلى السجن متهما بارتكاب جريمة قتل لم يقترفها بعدما خالط مجتمع المدينة وعاقر الخمرة مع رفاقه العمال الأوروبيين، حتى تدهورت حاله وأهمل زوجته وترك الصلاة.

Scanné avec CamScanner

أما رواية مأمون Mamoun, L'ébauche d'un idéal لشكري خوجة فقد عالجت وعكست بدورها مخالطة المجتمع المديني بالريفي ؛ فبطلها شاب جاء من عمق الريف الجزائري إلى العاصمة لمتابعة الدراسة خالط المجتمع الأوروبي وشاركه في شرب الخمرة حتى الهلاك وانتهت حياته بالمرض والموت من جراء شرب الخمرة والسهر ولعب القمار.

الشيخ المولود بن موهوب شرب الخمرة وتعاطى الحشيش ولعب القمار وقد أشارت دراسة أحمد منور "الأدب الجزائري باللسان الفرنسي" إلى مسألة الموالهنة الفرنسية وكيف يمكن للجزائري أن يصبح فرنسيا بحكم واقع الاحتلال وما ينجم عن ذلك من التزامات ويبقى في الوقت ذاته عربيا مسلما؛

ظهرت عدة روايات على الساحة الأدبية باللسان الفرنسي تساير الوضعية الاجتماعية والفكرية والسياسية نذكر منها:

- محمد ولد الشيخ ← رواية مريم بين النخيل 1934
- بوعلام رابح زناتي ← بولنوار فتى جزائري 1941
- جميلة دباش ← ليلى فتاة جزائرية 1948

طرح الروائيون مختلف القضايا الاجتماعية والثقافية من خلال الأفكار السياسية والانشغالات الأيديولوجية التي كانت تسبب في تباعد الطائفتين وتنافرهما. كمسألة الزواج المختلط الذي لم يحقق الانسجام المطلوب بين الأزواج وتربية الأولاد نظراً لاختلاف العقيدة وهذا ما عبرت عنه رواية "مريم بين النخيل" لمحمد ولد الشيخ و"بولنوار فتى جزائري" لرابح زناتي و"ليلى فتاة جزائرية" لجميلة دباش حوالي الشرخت كلها على فشل الزيجات المختلطة.

-5-

-97 .98 .99

Scanné avec CamScanner

مما لا شك فيه، أن التباعد بين الطائفتين - لكم دينكم ولنا ديننا - قد شكل ضغطاً إجتماعياً قوياً لم يستطع أبطال الروايات المذكورة الصمود في وجهه مثلما حدث لبطل "زهراء امرأة المنجمي" وبطل "ماسوت" وبطل "بولنوار" التي الجزائري، وبالتالي النهاية المأساوية وانهزام البطل الروائي.

المحاضرة 4: مرحلة النضج وتطور الوعي الروائي.

تختلف هذه المرحلة المحضورة بين النضج والتطور في وعي كتابها بالمنطلقات الفكرية، أي الإيمان بمبدأ سياسة الإدماج والتعايش مع الأوروبيين في تصوير عادات وتقاليد المجتمع الجزائري المشبعة بالدين الإسلامي، باعتبارها مقوماً أساسياً للشخصية الجزائرية -

ويندرج في هذا السياق رواية "ابن الفقير" لمولود فرعون 1939 التي تختلف عن كتابات هذه المرحلة في طغيان "طابع السيرة الذاتية" في عنايتها الدقيقة بتصوير العادات والتقاليد القبائلية كخصوصية محلية وبعض الإشارات الإسلامية، كالبركة والصوم الآتين والتبرك بالجمعة في كل الفصول بصنع الفخار.

أما العمل الثاني فيتمثل في رواية "لبيك" لمالك بن نبي 1948

MALEK BEN NABI « LEBBEIK » 1948

وهو المفكر الإسلامي الذي عبر عن توجهه الفكري من خلال العودة إلى موضوع شرب الخمرة ولكن بمنظور جديد وفي نطاق تصور نظري متكامل عن شروط النهضة التي يرى أنها لا يمكن أن تقوم إلا على أساس العودة إلى الأصل، أي الدين الإسلامي.

ولهذا تعد هذه الرواية "لبيك" - الوحيدة التي كتبها بعد كتابته الظاهرة القرآنية 1947 - Le phénomène coranique 1947

Scanné avec CamScanner

"فمالك بن نبي" لم يترك بطله حائرًا عاجزًا ينتظر مصيره المحتوم بل قدم "الحل" بتحفيزه عن ذنوبه والذهاب إلى الحج. وهو يريد أن يقول للقارئ أنه لا شيء قد ضاع وبأن الشعب يستطيع التحرر بتمسكه بعقيدته. وتطرق مالك بن نبي بحسه السليم إلى مسألة الهوية وكيف تكون حامية للشخصية ومكوناتها.

وقفات مع المفكر الإسلامي مالك بن نبي:

1. الهجرة إلى الحجاز
2. قراءة رواية لبيك
3. ملخص بالفرنسية

وقفة مع مالك بن نبي - رسائل قصيرة.

الهجرة إلى الحجاز

كان حلم مالك بن نبي وزوجته الفرنسية المسلمة أن يستقرا في الطائف بعد تخرجه من مدرسة المهندسين بباريس، وعبّر عن هذه الرغبة في مذكراته بصورة متكررة: "تأكدت لديّ فكرة السفر إلى الحجاز، فرارًا من العيش في أرض استعمار أو في أرض مستعمرة؛ لأنني سئمت فيها الوجوه والآفاق".

ويقول في موقع آخر: "وبدأت أفكر جديًّا في الهجرة إلى الحجاز لأستقر بالطائف"، وكان لكل منهما مشروع خاص لخدمة هذا البلد، تقوم زوجته بالزراعة وتربية الحيوانات على الطريقة الغربية وتعليم الخياطة ونسج الإبرة للبنات، أما مالك بن نبي فيشتغل بتجارة العطور الفرنسية أو تحويل بقايا أضحية العيد إلى أسمدة، وتحويل الحرارة الشمسية إلى طاقة.

لما تحمس مالك بن نبي للهجرة إلى الحجاز، عرفت أسرته كلها تقريبًا الحجاز وأدت فريضة الحج، وكان ابن نبي حريصًا دائمًا ومنذ صغره على سماع أخبار البقاع المقدسة، وقد أورد في مذكراته اللحظات السعيدة التي قضاها إلى جانب أمه التي كانت تقص عليه ما شاهدته في مكة المكرمة.

بالإضافة إلى العامل الديني الذي يحث المسلمين على الحج ودراسة سيرة الرسول – صلى الله عليه وسلم، والصحابة – رضوان الله عليهم – التي وقعت معظم أحداثها في شبه الجزيرة العربية، وتأثره ببعض المثقفين الذين درسوا وعاشوا في الحجاز كما ذكرنا من قبل، كان مالك بن نبي يرى في الدولة السعودية الفتية كيانًا سياسيًّا قائمًا على المجتمع الإسلامي الذي كان ينشده، وتجسيدًا على أرض الواقع للدعوة الوهابية في بُعدها التجديدي التي آمن بها، فلا شك أن من طبيعة الإنسان أن يسعى لدعم الدولة القائمة على الفكرة التي اعتقد بها وخدمتها، وخاصة أن الملك عبد العزيز كان يريد الاعتماد أكثر على الإطارات الإسلامية في بناء دولته الجديدة حتى يتجنب الأخطاء والمشكلات التي وقع فيها الملوك العرب الذين استقدموا العلماء والمهندسين من أوروبا، وكانت النتيجة تضخم الديون وبقاء التخلف، وفتح المجال للغزو الاستعماري في كل أشكاله.

لم تكن رغبة مالك بن نبي للإقامة في الحجاز شعورًا عابرًا، فقد قام بكل الإجراءات الإدارية لتحقيق حلمه وتحويله إلى واقع ملموس، لكن القنصلية المصرية بباريس رفضت أن تمنحه تأشيرة للمرور على ميناء السويس، فكانت بحق صدمة عنيفة له: "إن الاستعمار يستطيع أن يتمسك في بعض الحالات بمظاهر المشروعية؛ لأن خونة من بين العرب ومن بين المسلمين يتولون الأمر، للقيام بالدور الذي لا يسمح له به كبرياؤه في تلك اللحظة"، وازداد وقع الخيبة حين علم أن أحد زملائه من يهود أوربا الشرقية تحصل على التأشيرة المصرية بدون عناء، واستقر عامًا في مصر. لم يتمكن مالك بن نبي من الهجرة إلى الحجاز والاستقرار مع أهله في الطائف، وتحقق جزء من حلمه في الخمسينيات عندما أدى فريضة الحج، وحرص على العودة إلى بيت الله الحرام في الستينيات وبداية السبعينيات من القرن الميلادي الماضي.

Scanné avec CamScanner

"لبيك حج الفقراء" الرواية الوحيدة التي أبدعها يراع المفكر مالك بن نبي، وفيها يرسم عمق الروح الجزائرية وشخصيتها المنتمية إلى تراث الثقافة والحضارة الإسلامية المنشدة إلى منازل الوحي، وهو أحد إبداعات المؤلف في

الأدب الفرنسي. ومكة والكعبة أنشودته وروحه والمنطلق في مشروعه والمعاد إليها في بناء جديد لحضارة الإسلام وهي تُبعث من جديد.

- تدور أحداث الرواية في مدينة عنابة (بونة إبان الحقبة الاستعمارية)، وتضع القارئ آنذاك وحتى اليوم في الأجواء التي كان يعيشها الإنسان الجزائري البسيط في كل مدينة جزائرية كعنابة، حيث مؤثرات النمط الأوربي قد طغت على الجو العام. فالعم محمد والطفل هادي والسكير إبراهيم وزوجته كانوا يمثلون الشعب الجزائري بكل فئاته، فالعم محمد يمثل الأصالة المتجذرة في الأمة، ويمثل إبراهيم، مع انحرافه عن الطريق السليم، الجيلَ الذي احتك وعايش المجتمع الأوربي في الجزائر، حيث كان في حيرة من أمره. فما تعلمه صغيرًا وغاص في أعماقه لا يتناسب بما يطفو على السطح مع أحاسيسه العميقة. إنه الفراغ الذي يعانيه كل امرئ غير مقتنع بعقيدته ومقوماته الأخلاقية، لكنه استدرك الأمر وأدّى إبراهيم فريضة الحج، مما يدل على أنه مهما حاد المؤمن عن سواء السبيل، فإن إخلاصه لابد أن يعيده إلى الهداية وإن طال زيغه. وظلت زهرة زوجة إبراهيم على ما عانته من ويلات وعربدات زوجِها الليلية تكِنُّ له كل الاحترام، وتتمنى له الخير وتعامله كأنه أخوها أو ابنها. ومسبحة أم إبراهيم كانت تمثل لها الرصيد الثقافي المتوارث عبر الأجيال. ويتوب إبراهيم السكير، والطفل هادي يتحدى رفاقه ويصعد إلى المركب ليحج هو الآخر بعزيمة أقوى من أن تقهر. وتتميز الرواية بسلاسة الأسلوب في سرد الأحداث وغناها بعنصر التشويق والتنكيت والطرافة.

وكما جاء على لسان عمر مسقاوي، تلميذ مالك بن نبي، فإن قصة "لبيك حج الفقراء" قد رسمت عمق الروح الجزائرية وشخصيتها المنتمية إلى تراث الثقافة والحضارة الإسلامية المنشدّة إلى منازل الوحي.

ففي هذه الرواية ذات الأحداث البسيطة, استطاع مالك أن يقدم لنا وصفًا للمجتمع الجزائري ببساطته وأصالته ومحافظته على هويته وتراثه ودينه رغم كل المحاولات الفرنسية لطمس هذه الهوية وحرف الشعب عن فطرته وإنسانيته.

- فإبراهيم بطل القصة الذي قرر الاستجابة لنداء الفطرة والدين ونداء المجتمع وعاداته وتقاليده.. نداء الذكريات العائلية التي حفرت في نفسه قيم دينه وأمته ومجتمعه.. وكان يمثل تلك العودة إلى الروحانية والنقاء بعد ابتعاده عن تلك القيم، وغوصه في قذارة الانحلال والمادية.

لا أعتقد أن مالكًا كان يبتغي من كتابة روايته تلك أن يبدع رواية أدبية وكفى، بل كان يريد أن يؤكد على أن في هذا المجتمع قيمًا راسخة ليس من السهولة طمسها، وأن هذه القيم هي التي ستحمي حضارتنا من الذوبان والاضمحلال. فقوة الدين.. قوة المركز، تشد دائمًا أفراد المجتمع لتعيدهم نحو تلك القيم مهما ابتعدوا عنها، ومهما أثرت فيهم دعوات المادية الفجة.

- لم يكن مالك بن نبي منشغلاً بمسألة الهوية بقدر انشغاله بالبحث عن أسباب الانحطاط والقابلية للاستعمار, ولكنه في هذه الرواية تطرّق بحسّه السليم إلى مسألة الهوية، وكيف تكون حامية ومنجية للشخصية ومكوناتها.

وبالرغم من أن تلك الرواية قد كُتبت قبل سنوات كثيرة –أكثر من ستين عامًا (1947م)– فقد جاءت من الروايات التأصيلية التي تعاملت مع المجتمع من منظور الاحترام وليس من منظور النقد والاحتقار، فقد صورت لنا

Scanné avec CamScanner

تلك البساطة والحميمية في التعامل بين أفراد المجتمع، وتطرقت لمسألة في غاية الأهمية وهي مسألة الانتماء للمجتمع، فالفرد الذي يخرج عن قيم المجتمع هو فرد منبوذ ومطرود من قِبل الشعب، ولكنه سرعان ما يعود للاندماج ويلاقَى بالترحيب والسرور إذا عاد للالتزام بهذه القيم واحترامها.

-"لبيك حج الفقراء".. رواية بسيطة ولكنها مؤثرة، لا تخلو من تشويق، وهي رغم سلاسة أحداثها، من تلك القصص التي نسمعها عن رحمة الله بعباده وأنه يهدي من يشاء إلى طريقه المستقيم، ولكنها من الروايات التي تذكرنا بأن قيمنا وهُويَّتنا هي طريق نهضتنا، وأن عودتنا لتلك الأصول هي التي يجب أن ننطلق منها لرسم حياة جديدة وحضارة اتصالية نابعة من ذاتنا ومن أخلاقنا ومن خصائصنا تؤكد للعالم أن هناك حضارة قوية راسخة, تستطيع مقاومة تيار المادية الجارف الذي يريد الهيمنة على باقي الحضارات ومحوها من الوجود.

تتناول الرواية مختلف شرائح المجتمع بمختلف مستوياتهم وخلفياتهم وجنسياتهم (على الرغم من أن الجزائر هي بلد الحدث) وتوثق أسلوب حياتهم في حقبة من الحقب –بداية القرن العشرين الميلادي– لتُبرز قصة أغلى رحلة في قلوب المسلمين وهي رحلة الحج في ذلك الزمان.

رحلة الحج التي تميزت ببساطتها وعفويتها تجعل من المسلم متشوقًا لعيشها وتجربتها كما جربها أبطال الرواية. والرواية قصيرة معبرة وواقعية ومليئة بالمشاعر والأمل.

وقد أراد بها –كما قال مالك بن نبي لناشرها الفرنسي– أن يمسّ جزءًا مهمًا من القيم والعادات الجزائرية التي لا تبعد كثيرًا عن القيم الإسلامية، وقد قام بترجمتها عن الفرنسية مؤخرًا الدكتور زيدان خوليف الذي عثر على هذه الرواية أثناء إعداده لرسالة الدكتوراه عن حياة مالك بن نبي وأعماله.

Scanné avec CamScanner

كتب مالك بن نبي

بالعربية.

- Vocation de l'Islam. ← دعوة الإسلام
- Les conditions de la Renaissance. - شروط النهضة.
- le problème des idées dans le monde musulman. مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي.
- pourritures - التعفن
- le phénomène coranique. الظاهرة القرآنية

- Au petit matin, Brahim se réveille à l'instant même où finit le rêve qui l'avait transporté à la mecque. son subconscient à lui, la veille s'emplit du spectacle du flot de pèlerins déferlant sur la ville. Dans son enfance il a fréquenté l'école coranique

"Brahim avait gardé, malgré la mauvaise tournure de sa vie, l'esprit mystique que ~~légué une~~ lignée d'honnêtes gens à sa descendance" il se réveille, son rêve encore frais, prend conscience de sa triste condition. et se sont gagné par un sentiment de honte ce quelle que soit sa déchéance, une âme musulmane garde ainsi une certaine dignité par ce sentiment qu'elle a de l'opprobre, quand elle a succombé =

Scanné avec CamScanner

المحاضرة (5) مرحلة الإبداع والبراعة الفنية.

- عرفت سنوات الخمسينات تطورا ملحوظا وقفزة نوعية في مجال الكتابة الروائية باللغة أو اللسان الفرنسي.

لقد عكست الرواية الواقع الحي للمجتمع الجزائري بكل أطيافه وشرائحه وما تعانيه من آلام وجروح وقهر وظلم. فلم تعد المناقشات الفوقية عن "العدالة والمساواة" تلبي حاجيات الواهن في ظل الحكم الاستعماري، وسقطت أقنعة وقيم "التعايش السلمي" بين الجزائريين والمعمرين وكشف الوجه الحقيقي للإدماج والزواج المختلط.

وتأكد هذا التوجه الجديد في كتابات "محمد ديب" لاسيما الدار الكبيرة Mohamed Dib « La grande Maison » 1952 التي شكلت منعطفا حاسما في تطور الأدب الروائي الجزائري المكتوب بالفرنسية على مستوى المضمون والشكل. لقد نزلت الرواية إلى الطبقات الدنيا من المجتمع، وتحدثت عن هموم الناس البسطاء، ووصفت أحوالهم المعيشية القاسية ومعاناتهم من الجوع والفقر والقهر، كما تحدثت لأول مرة عن مناضلين سياسيين يعملون ويعيشون في الخفاء، مطاردين من قبل البوليس الفرنسي الذي يقوم بمداهمات فجائية مرعبة لسكان الدار من أجل ترهيبهم واعتقالهم.

فضلا عن طرح تساؤلات صريحة عن "الهوية الوطنية" وعن مفهوم الوطن وعن الهوية الحقيقية للجزائريين، من خلال مشاهد تفنن فيها محمد ديب: الدرس - المواطنة. التلاميذ - عمر - الأستاذ - فرنسا أمكم - عمر لا تعرف أمّا إلا التي تركتها في الدار - الذاكرة - ماذا ستصبح أمي اليوم! هل ستشتري الخبز! وتسرد لنا "ذاكرة عمر" لوحات فنية عن مشاهد صادمة لشبح الجوع الذي يطارد سكان الدار الكبيرة،

Scanné avec CamScanner

يسير محمد ديب في أعماله اللاحقة، كما في روايتي الحريق 1954
L'incendie 1954
ومهنة الحياكة 1957
Le Métier à tisser 1957

اللتين تشكلان امتدادًا وتكملة لـ "الدار الكبيرة" ولهذا يطلق عليهما بثلاثية محمد ديب.

كشفت "الحريق" عن عالم البؤس والشقاء ومعاناة الفلاحين من الفقر المدقع والاستغلال الفاحش لهم من طرف المعمرين.
كما كشفت أيضا "مهنة الحياكة" عن عالم وحياة الحرفيين البائسة في المدن. من الملاحظ أن ثلاثية محمد ديب لم تكن وليدة الصدفة في سنوات الخمسينات، بل تنبئ بانفجار قريب وواقع غير محتمل فقدت فيه الإنسانية حقها المشروع في الحياة الكريمة. فسارت الثلاثية في خط متوازٍ مع الثورة التحريرية التي كانت شرارتها ليلة أول نوفمبر المبارك 1954.

- توالت الروايات الواحدة تلو الأخرى لتسير نفس اتجاه أعمال محمد ديب نذكر منها: "يوم الدل" لمولود معمري 1957 التي كشفت عن حالة التخلف والفقر والحرمان التي كانت تعاني منه القرى القبائلية المنعزلة في رؤوس الجبال تحت وطأة الجهل وتحكم العادات والتقاليد في حياة الناس من جهة ووطأة الاستعمار واستغلاله لحالة الجهل بما يخدم مصالحه ويضمن له استعباد الناس.
وأما رواية "نجمة" لكاتبه ياسين 1956 فقد تمرد أبطالها على الوضعية السيئة والمهانة والذل والاستغلال الذي يتعرض له العاملون باليومية في ورش المعمرين من جهة، وصورت حالة البطالة والفقر المدقع من جهة ثانية مما أضاف إحساسهم بالظلم ودفع مراد إلى ارتكاب جريمة قتل الذي لم يستطع احتمال الظلم والإهانة التي تعرضت لها خادمة عربية بإرغامها على شرب الخمر في حفل زفاف، وضربوها فتدخل مراد بقوة ليعوض معركة انتهت بمقتل المقاول وعروسه.

Scanné avec CamScanner

* 1 النزعة النضالية الثورية في الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية

أولاً : الرواية : أعمال كاتب ياسين - مالك حداد و آسيا جبار ومحمد ديب

ثانيا : المسرحية : سارت معظم المسرحيات التي ظهرت في فترة الخمسينات في الاتجاه الثوري التي قدمها كاتب ياسين مثل الجثة المطوقة والأجداد يزدادون ضراوة"

ثالثا : القصة القصيرة : تحدث القصة القصيرة موضوع الثورة التحريرية

ملحق : مرجع : الأدب الجزائري باللسان الفرنسي أحمد منور.

ملحق

Scanné avec CamScanner

وقد تناول الكاتب أيضا في جانب من الرواية مظاهرات 8 مايو 1945، التي وقعت في سطيف وخراطة وقالمة وراح ضحيتها عشرات الآلاف من الجزائريين، وصوَّر وقائع من القسوة والوحشية التي قمعت بها تلك المظاهرات[54]، فكانت هذه الأعمال الروائية بمثابة المؤشر الذي يشير إلى ما آلت إليه أوضاع الجزائريين من التردي والفساد، والمُحذِّر من مغبة ما كان وشيك الوقوع ، ألا وهو انفجار ثورة التحرير الكبرى في فاتح نوفمبر 1954. علما أن هذه الروايات لم تنشر في الجزائر، وإنما نشرت في فرنسا، وفي دور نشر معينة ومعروفة[55]، حيث وجدت تعاطفا معها من قبل مثقفي اليسار الفرنسي خاصة، والمثقفين المتنورين بوجه عام، ووجدت رواجا لدى جمهور القراء الفرنسيين، وهذا ما عجَّل بظهور أعمال روائية أخرى، لنفس المؤلفين المذكورين، ولمؤلفين آخرين، تعززت بهم وبأعمالهم هذه النزعة الاحتجاجية التي عرف بها الأدب الجزائري الفرنسي اللسان في فترة الخمسينيات، لتتحول مع الوقت إلى نزعة نضالية ثورية في أعمال كاتب ياسين اللاحقة، ومالك حداد ، وآسيا جبار، في توافق مع الأحداث السياسية التي تطورت بداية من سنة 1954 إلى كفاح مسلح دام سبع سنوات ونصف ، بحيث لم يعد هناك ما يدعو إلى أية مهادنة للاستعمار، أو أية مصالحة معه ، إلا على أساس انفصال الجزائر عن فرنسا، واستقلالها

---

54 وشارك الكاتب نفسه في تلك المظاهرات بمدينة سطيف، وقبض عليه وسجن وطرد من الثانوية بسبب ذلك. راجع: Mohamed Ismaïl Abdoun «Kateb Yacine» Coll. Classiques du monde S.n.e.d Nathan Alger-Paris1983, p3.

55 ولاسيما من شورات "سوي" Seuil التي تأتي في مقدمة دور النشر التي نشرت للجزائريين وشجعت أدبهم ، بالإضافة إلى دور : جوليار، ودونوال، وكوريا، وبلون. راجع إحصاء عبد الكبير الخطيبي في: «Le roman maghrébin», pp32-33.

Scanné avec CamScanner

عنها استقلالا تاما[56]، وقد عبر الدكتور صالح قادر — أحد أبطال رواية "التلميذ والدرس" — عن هذا المعنى بكثير من الدقة والإيجاز، حين اعتبر أن حياته الحقيقية قد بدأت مع مظاهرات 8 مايو 1945 الدامية[57].

وهذا هو المعنى الذي عبرت عنه الأعمال الروائية اللاحقة التي ظهرت بدء من سنة 1958، مثل رواية "الإنطباع الأخير" (1958) لمالك حداد، التي تعد أولى الروايات التي صورت وقائع الثورة المسلحة، و"صيف إفريقي" (1959) لمحمد ديب، التي قدمت نماذج من صور المقاومة الشعبية، أبطالها فلاحون من الأرياف، وحرفيون في المدن، وشبان وفتيات، مثقفون وأنصاف مثقفين وأميون، وعرضت لوحات دامية مما كانت تقوم به القوات الفرنسية من قنبلة بالطائرات، وقصف بالمدفعية للقرى والأرياف، وتشريد لسكان تلك القرى، وما كانت تفعله تلك القوات نفسها في المدن من قمع وترهيب للسكان الآمنين، وتعذيب للمناضلين والثوار الذين يقعون بين أيديها، وزج بالأبرياء في غياهب السجون والمحتشدات.

وقد عاد ديب إلى تصوير أحداث الثورة من جديد في روايته اللاحقة: "من يذكر البحر" (1962)، ولكن بأسلوب مغاير، حيث لجأ فيها إلى استعمال الرمز والتكثيف الشديد للأحداث، ليعبر بذلك عن

---

56 ويبدو أن هذه القناعة كانت قد نضجت في ذهن كل الأنتليجانسيا الجزائرية كلها، حتى لدى أولئك الذين عرفوا بصبرهم وطول نفسهم مع الاستعمار، مثل الزعيم فرحات عباس الذي صرح في سنة 1953 قائلا: "لم يبق من حل سوى الرشاش": Cité par Bouba Mohammedi , «La société algérienne avant l'indépendance dans la littérature.. » , p18 .

57 مالك حداد "التلميذ والدرس" ترجمة سامي الجندي، دار الطليعة، بيروت 1962 ص 19.

Scanné avec CamScanner

أجواء التوتر والرعب التي كانت تسود المدن، وعن حالة الخراب والدمار التي آلت إليها القرى والمداشر.

و يرسم مالك حداد جو الحرب هذا في روايتيه" التلميذ والدرس"(1960) و"رصيف الأزهار لم يعد يجيب"(1961)، ولكن بطريقة مختلفة عن طريقة ديب، حيث يركز على جو القلق والتوتر الذي يطبع الحياة العامة أكثر مما يركز على الأحداث والوقائع، ويجعل أبطاله يعيشون ذلك القلق والتوتر، ويعانون الحرب وآثارها ، مثل ما كان خالد بطل"رصيف الأزهار" ((يعاني الحرب كما يعاني صداعا في الجمجمة))[58]. وتقول"فضيلة" في رواية"التلميذ والدرس": ((أنا شقية ..))، ويعلق الدكتور"قادر" على ذلك بقوله: ((كنت أنتظر هذه الكلمة لأنها وحدها تلخص تاريخ وطن))[59]. وعلى العموم، فقد كتبت هذه الأعمال كلها أثناء ثورة التحرير، من موقف ملتزم ومنحاز إلى الثورة[60].

وبإصدار حداد لديوانه الأول"الشقاء في خطر"(1956)، يكون هذا الشاعر قد أعطى للشعر المنظوم بالفرنسية من قبل الجزائريين دورا رائدا ومتميزا في التغني بالثورة والتحريض على مقاومة المستعمر بالكلمة الشعرية المعبرة والمؤثرة، وكان الشعر قبل هذا التاريخ متخلفا عن الرواية في هذا المجال، وقد جاء ديوانه الثاني"اسمعي وأناديك"(1961) ليعزز مكانة الكلمة الشعرية الملتزمة، ويؤكد قدرة الشاعر الخارقة على

---

58 Malek Haddad « Le quai aux fleurs ne répond plus », p34 .

59 مالك حداد "التلميذ والدرس" ص 47 .

60 وقد انضم الكتاب بأقلامهم إلى الثورة، كما كلف بعضهم من قبل قيادة الثورة، مثل مالك حداد، بمهمات ثقافية وإعلامية في بلدان عديدة في أوروبا والبلاد العربية والعالم مثل تلك الرحلة التي قادته في ربيع 1961 إلى القاهرة ودمشق.

Scanné avec CamScanner

الإبداع، وهو الشيء الذي جعل الشاعر الفرنسي الشهير "لويس أراغون" يعجب به ويصفه بأنه من طيور الأغصان العليا[61].

وتنتمي معظم الأعمال الروائية التي ظهرت بعد الاستقلال، وحتى نهاية سنوات الستينيات تقريبا إلى هذا الاتجاه الذي وصفناه بالاتجاه الملتزم والمنحاز إلى الثورة، وقد اتخذت لها كإطار عام أحداث ووقائع الثورة المسلحة، من تصوير لعمليات المقاومة الفدائية في المدن مثل ما نجد في رواية "أطفال العالم الجديد" (1962) لآسيا جبار، وضرب القرى والمداشر بالمدافع والطائرات، وتهديم المنازل على رؤوس سكانها مثل ماهو الحال في رواية "الأفيون والعصا" (1965) لمولود معمري، ووصف الحياة الصعبة داخل المعتقلات والسجون وتنظيم عمليات الهروب منها كما نجد في روايتي "أصابع النهار" (1967) لحسين بوزاهر و "أسلاك الحياة الشائكة" (1969) لصالح فلاح.

ويمكن وصف هذه الأعمال بأنها كانت تصور كلها بطش الاستعمار وبشاعة أعماله من جهة، وتشيد من جهة أخرى بكفاح الشعب، وتتغنى بأمجاده ومآثره القديمة والحديثة، وتعمق الإحساس بالوعي الوطني ووحدة الأمة، وتلتقي مع كتابات وأبحاث تاريخية واجتماعية تاريخية ظهرت في هذه الفترة[62].

---

61 ملك أبيض العيسى، ترجمة ديوان مالك حداد "الشقاء في خطر"، نشر المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط 2. بيروت 1979، ص23.

62 مثل كتابات محمد الشريف ساحلي عن الأمير عبد القادر ، وعن تشويه الاستعمار للتاريخ الجزائري ، وكذا كتابات مصطفى الأشرف عن الأمة والمجتمع، وقد اعتمدنا بعضها كمراجع في هذا البحث .

Scanné avec CamScanner

المسرحية:

وفي مجال المسرح سارت معظم المسرحيات التي ظهرت في هذه الفترة بدورها في هذا الاتجاه الثوري، وأهمها، حسب اهتمام النقاد بها وحسب الصدى الذي أحدثته، تلك التي قدمها كاتب ياسين مثل مسرحية"الجثة المطوقة" و"الأجداد يزدادون ضراوة" التي عرضت على خشبة المسرح أثناء الثورة التحريرية في بروكسيل، ثم نشرت مع نصوص أخرى بعنوان"دائرة الانتقام"(1959). وهناك أعمال أخرى لقيت صدى أقل، مثل مسرحية"أصوات في القصبة"(1960) لحسين بوزاهر، ومسرحية"الميلاد" و"الزيتونة"(1962) لمحمد بوديا، و"احمرار الفجر"(1969) لآسيا جبار ووليد قرن، وكذا مسرحية"الرجل ذو النعل المطاطي"(1970) لكاتب ياسين، التي عرضت على خشبة المسرح الوطني الجزائري سنة 1969 بلغتها الأصلية(الفرنسية)، ثم باللهجة العامية. وحتى إن ابتعد المؤلف في هذه المسرحية عن الجزائر من حيث المكان، فإنه لم يبتعد عن الثورة كموضوع، حيث يتخذ من كفاح الشعب الفيتنامي ضد الاستعمار الفرنسي موضوعا لها. غير أننا نلاحظ أن معظم المسرحيات التي سبقت الإشارة إليها كانت قد عرضت خارج الجزائر، وفي أوروبا بالتحديد، على جمهور غير الجمهور الجزائري، أما التقليد الذي سار عليه المسرح في الجزائر، في مختلف مراحله — ومنه ما قدمته فرقة"جبهة التحرير الوطني" أثناء الثورة المسلحة — فهو تقديم العروض باللهجة العامية الجزائرية، ولذلك لم يكن للمسرح الناطق باللغة الفرنسية حضور قوي في صالات العرض الجزائرية ، وظل معظم ما كان يكتب منه بهذه اللغة نصوصا موجهة للقراءة لا للتمثيل ، ولم تكن تجد لدى الجمهور إقبالا على قراءتها مثل ذلك الذي كانت تلقاه الرواية ، فكان هذا أحد الأسباب الرئيسية — من

Scanné avec CamScanner

ضمن أسباب أخرى — التي جعلت كاتب ياسين يتخلى عن كتابة مسرحياته باللغة الفرنسية، ليكتب ويقدم عروضه بالعامية الجزائرية ((التي يفهمها جميع الجزائريين ، في أغلبيتهم الساحقة))[63].

وقد تبعه في هذا المضمار تلاميذ وأتباع، كتبوا بدورهم بالعامية، ويأتي في مقدمتهم سليمان بن عيسى الذي بدأ الكتابة في سنوات السبعينيات بنقل بعض مسرحيات كاتب ياسين من الفرنسية إلى العربية العامية، ثم تحول إلى التأليف، وقدم عدة أعمال مسرحية لاقت نجاحا كبيرا، أهمها مسرحية"بوعلام زِد القدَّام"(1975)، و"بابور غرق"(1983)، و"أنت خويا وأنا أشكون؟ "(1990)، وقد عاد في السنوات الأخيرة إلى الكتابة بالفرنسية من جديد، ليؤلف ويعرض، ابتداء من سنة 1991، عدة مسرحيات له في بلجيكا[64].

- القصة القصيرة -

أما بالنسبة للقصة القصيرة باللغة الفرنسية ، فمثلها مثل الشعر ، لم تحظ بالأهمية ولا بالأولوية لدى الكتاب والقراء على السواء ، وتأتي في الدرجة الرابعة من حيث الاهتمام بها بعد الرواية والشعر والمسرحية[65]، وقد ظهرت متأخرة بالقياس إلى الرواية والشعر ، وكان محمد ديب رائدها الأول بمجموعته الأولى " في المقهى" (1955)، التي نقابل فيها العديد من شخصيات ثلاثيته الروائية، مثل"عمر"، والعمة"حسناء"

63 «Kateb Yacine , un homme , une oeuvre, un pays », Entretien réalisé par Hafid Gafaiti . Coll. Voix Multiples . Laphomic. Alger 1986 , p10.

64 Achour Chorfi «Mémoire algérienne: dictionnaire biographique», Ed. Dahlab . Alger 1996, p135 .. P135 .

65 هذا ما يستنتج من قول الدكتور عبد الله ركيبي حين يقول: ((على أن الملاحظ أن الباحثين عندنا يتعرضون لمناقشة هذا الأدب، إنما تنصب عنايتهم بالدرجة الأولى على الرواية والشعر والمسرحية ويغفلون الحديث عن القصة القصيرة بالفرنسية)) ، راجع : د. عبد الله ركيبي "القصة القصيرة في الأدب الجزائري المعاصر"، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة 1969، ص246 .

Scanné avec CamScanner

و"ابنة العم الصغيرة"، حيث يقدم محمد ديب إضافات جديدة يتعلق بعضها بأحداث كان قد أشار إليها في الثلاثية مجرد إشارات سريعة، كـزواج "ابنة العم الصغيرة"، الذي يخصه بقصة مستقلة هي قصة "زواج بديع"، وبعضها بالتطور الذي حدث في حياة الأبطال أو في وعيهم ، مثل الطفل عمر، الذي استنتج بصفة تلقائية في هذه المناسبة — وهو الذي طالما عانى آلام الجوع — أن السعادة في الحياة ليس أساسها الأكل، ولكن الشعور الداخلي بالمتعة[66]، وقد اتخذت القصة القصيرة بالفرنسية في الجزائر بعد الاستقلال، ككثير من الأعمال الروائية والشعرية في هذه الفترة، حرب التحرير كموضوع رئيسي لها[67]، وكان محمد ديب في مجموعته القصصية الثانية "الطلسم"(1966) سباقا مرة أخرى في هذا المجال. ويتأكد التركيز على موضوع الثورة التحريرية في كل مرة يظهر فيها عمل قصصي جديد، لاسيما في أعمال الكتّاب الذين اشتهروا بكتابة القصة القصيرة، على قلتهم، مثل قدور محمصاجي في مجموعته "زهور نوفمبر"(1969)، ومولود عاشور في مجموعاته "الناجي"(1971)، و"عباد الشمس"(1973)، و"آخر موسم للعنب»(1975)، و" أيام المعاناة"(1983) وكلها لمولود عاشور، إذ تشكل فيها القصص المتعلقة بالثورة نسبة عالية جدا.

66 د. عايدة بامية"تطور الأدب القصصي الجزائري 1925ـ1967 "ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1982، ص379.

67 نفسه، ص382.

Scanné avec CamScanner

ويلاحظ عموما بشأن القصة المكتوبة بالفرنسية في الجزائر ضعف مساهمة الروائيين الكبار في كتابتها[68]، وكثرة من كتبوا فيها، على تنوع اختصاصاتهم الأصلية، من شعراء، ومسرحيين، وصحفيين، وكتاب مقالات، بحيث لم يتعد أغزرهم إنتاجا في هذا الفن، وهو مولود عاشور، أربع مجموعات قصصية، ومع ذلك تذهب الباحثة "عايدة بامية" إلى القول بأن القصة الجزائرية باللغة الفرنسية ((أظهرت بعض التفوق على نظيرتها العربية ..لأنها لم تعمد إلى استخدام نفس القدر من الشعارات والتعابير المتبادلة وأن لهجتها كانت أقل دعائية ووعظا))[69]، ولكنها تستدرك بعد ذلك لتسوق قولا لجان ديجو — وهو أكبر مختص في الأدب الجزائري باللغة الفرنسية — ينتقد فيه هذه القصة، ويقول عنها ((إنها مليئة بالصيغ المكررة والعبارات المتداولة))[70].

هذا بالنسبة لما أنتجه الكتاب على المستوى الإبداعي، لاسيما في مرحلة ما قبل استعادة الاستقلال الوطني، أما على المستوى النقدي والتنظيري فإنه لم يظهر في المقابل نقاد ودارسون جزائريون متميزون لهذا الأدب، حيث ظل يعاني من فراغ كبير في هذا المجال، وظلت تصريحات الكتاب ولقاءاتهم في بعض المناسبات مع الصحافة أو الجمهور هي المرجع الرئيسي لرصد توجهات هذا الأدب، وتسجيل مواقف كتابه إزاء مختلف القضايا الأدبية أو القضايا السياسية على السواء.

68 لمحمد ديب مجموعتان:"في المقهى" 1955، والطلسم (1966)، ولمولود معمري مجموعة واحدة نشرت بعد وفاته"توقفات" « Escales » (1996)، ولرشيد ميموني "حزام الغولة" (1990)، ولكاتب ياسين، وبوجدرة، وبوربون قصص قليلة متفرقة لم تجمع في مجموعات.

69 عايدة بامية " تطور الأدب القصصي الجزائري" ص 390.

70 المرجع نفسه، ص 390.

Scanné avec CamScanner